

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي
شامة

الجزء الثاني

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفى أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

قال ابن شدّاد : كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله، وفوض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد، واستتبّت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا، فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجّد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّاً، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته، ولقد سمعت منه رحمه الله يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي، وحين استتب له الأمر : مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما. وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مقوّم مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله لا يخيّب قاصداً ولا يعدم وافداً، ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر، وولاية الوزارة منهم: الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجدّه كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو حال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه، ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج، ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبه والتهامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، ومملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، فلا يصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له، ثم عدل إلى تطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من

الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعد وزاد في اقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى عين الدولة الياورقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقاؤه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) (١٠٧) وثبتت قدم صلاح الدين، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه ولا يفرد في كتاب بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئاً يخرج به فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته، فلم يجبه إلى ذلك وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك، كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده، قال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلفت أهواؤهم، وكاد الشمل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصالح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتليته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختم الخزان وأنص رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته وأنارت على منار العلى أناة آياته، ورأى أولياءه تحت الويته وراياته، وأحبوه وما زالت محبته غالبية على مهابته، وهو يباليغ في تقريبيهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفعا، وما أفاده إلا تأسلا في السماح وتفرعا، وضم من أمر المملكة ما كان منشورا، وكتب له العاضد وصاحب القصر منشورا، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال، ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه ففي ذلك المنشور: «والجهاد أنت رضع حرسنا حجرة، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازه تتلى مناقبك، فشمريه عن ساق من القنا، وخض فيه بحرأ من الظبا، وأحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدى، وأرفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورأ لأيامك، وشهودأ لك يوم مقامك»، وفي طرته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحقته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، و لمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه، و لمن تبقى من تبعته بنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في

الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)» (١٠٨) يعني بمن مضى أسد الدين وبمن بقي صلاح الدين

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبددت عقودها، وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام، بما تسنى له من المرام، ولن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولن تأخر عنه بالخلع والعطاء، وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا حصلوا بين أمة لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألّفونها، ورأوا وجوها هناك بهم عابسة، وأعيننا للمكائد متيقظة، وعن الودّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله :

أيها الغائبون عني وإن كنتم
تم لقلبي بدركم جيرانا
إنني مذلقتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعاننا
ملكوا مصر مثل قلبي وفيها
ذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلو وافيهما فأنكم اليو
م ملكتم عليهما سلطاننا
لاترعووا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقاننا

جذامعهدقضيئابهالعي
شش فكنابربعهجيرانا
إذوجدنا من الحوادث أمننا
وأخذنا من الخطوب أمننا
ورتعنا من المنى في رياض
وسكننا من المغاني جنانا

وبعد: فإن وفود الهناء وأمداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن
محض الولاء إلى عالي جنابه المأنوس، ومنيع كنفه المحروس، فليهنه
الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضبات المجد والعلو وكيف لا يكون
النصر مساوقاً لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم هو نجاحه
وفلاحه.

فالشام يغبط مصر أم دخلت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيل
نلتهم من الملك عفواً ما الملوك به
عنوا قديماً وراماً ~~وهفاناً~~

قال العماد: ورثت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين،
وعزيت بها أخاه نجم الدين منها:
تضعضع في هذا المصاب المباغت
من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفاً من كل مود وفانت
فها بالنابدي التصامم غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت
نؤمل في دار الفناء بقاءنا
ونرجو من الدنيا صداقة ماقت

ما الناس إلا كالغصون يد الردى
تقرّب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رسل المنايا واسمعت
ولكنهما لم تحظا بنابنا صت

ومنها
فلهفني على تلك الشائيل إنها
لقد كرمت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين
محمدأ يقول:

ما بعد يومك للمعنى المذنب
غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرأ الحدثن كيف سطا على الـ
أسد المخوف سطا ولم يتخوف
من ذارأ الأسد المصور فرسة
أم أبصر الصبح المنير وقد خفي
من ثابت دون الكفاة سواه إن
زلت بهم أقدمهم في الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف
أيام عمرك لم تنزل مقسومة
لله بين تعب و تعرف
متهجدا للعبادة أو تاليا
من آية أو ناظرا في مصحف
فجع الندى والبأس منك بحاتم
وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالمك فزت وحزته عن قدرة
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحاً بما ملك به لم يوصف
وقفت أنار الشريعة كلها
وقد اهتدى من للشريعة يقتضي
أنفت من دنياك حين عرفتها
فلويت وجهه العارف المتكف

ومنها :

يا ناصر الدين استعد بتصبر
مدن إلى مرضاة رب منزل
وتعز نجم الدين عنه مهتاً
أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لأنستطيع سوى الدعاء فكلنا
إلا بما في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمن في صلاح الدين مدائح منها قوله:
لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقى إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت
بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة
أقلتتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتهم عن الإقليم غمّه كما
كشفتهم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حميتهم من الأفرنج سرب خلافة
جرىتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الأنصار أضيقت من شبر

جلبتهم إليه النصر أوسا وخزرجا
وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أو آخر
وأولها بالنيل من شاطيء مصر
طلعتهم فأطلعتم كواكب نصره
أضواءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت إليكم يا بن أيوب دولة
تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزيمة أسديّة
فككتهم بها الإسلام من ريقه الأسر
أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدى الخيل: مرّي على مرّي
لئن نصبوا في البر جسراً فإنا لكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتهم عليها مع العدى
ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزّه
كما لم يهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها
بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيدىكم بالبأس كاسرة العدى
ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم
وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفاً له فاستنفزه
بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده
وإلا كنور البدر من سنة البدر

توقره ووسط الندى كرامة
وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسلم خلافة
تؤلف أضداد أمن الماء والجمر
وكم قمت في بأس وجود رتبة
بمأسره في الخطب والذست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم
لنعمتكم بالمستحق من الشكر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
بكم أمن الرحمن أعظم يشرب
وأمن أركان الثنية والحجر
ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى
بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتكم أزره بوزارة
غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنتيم فتحاً تقدم جلته
وبشر أن الكل يتلو على الإثر
وما بقيت في الشرك إلا بقية
تمتها في ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك أتى مهنتاً
وملتماً أجراً الكهانة والزجر
ولو الاعتقادي أن مدحك قرربة
أرجي بهانييل المشوبة والأجر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري
ولي سنوات منذ تبت عن الشعر
فاوص بي الأيام خيراً فإنها
مصرفة بالنهي منك وبالأمر

وجائزتي تسهيل أذني عليكم
وملقاتكم لي بالطلاقة والبشر

وقال أيضا من قصيدة :

يا شبيه الصديق عدلا وحسنا
وسميا حكاة معنى ومغنى
هذه مصر يوسف حل فيها
يوسف مالكا وما حل سجننا
أنت حرمت ان يثلث فيها
بسوى الله وحده أو يثنى
إنما الملك والوزارة جسم
أنت روح فيه وفي اللفظ معنى

وقال أيضا من قصيدة:

ملك صلاح الدين لا قوضت
أطنا به ملك البقا والصلاح
سيرة عدل حسنت عندنا
ما كان من وجه الليالي القباح
سافر في الدنيا وأقطارها
ذكر غدا عنه جميعا وراح
قل لابن أيوب وكم ناصح
أنفع ممن هو شاكي السلاح
حارب على مثل نجوم السماء
فملك مصر ما عليه إصطلاح
قول لمن في عزمه فترة
أرجع إلى الجدّ واخل المراح
فالقدس قد أذن اغلاقه
على يدي يوسف بالانفتاح

وقال أيضا من قصيدة:
ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب
حدوت على سجلي نداء وهديه
وإن كنت لاسجن حواك ولا جب
ووافقه في الصفح عن كل مذنب
فما منك تشريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة:
أبو المظفر ماوى كل مضطهد
بحكمه وندها يضرب المثل
مهيامل جائر أو عاث عمه
فعند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيى به الله مصر أفهى ناشرة
وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرنج بها ورد ومنتجعا
ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل
ملك تقلد سلك الملك منتظما
وقال للمال هذا منك لي بدل
ففرق المال جمع اللقوب به
وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم
لم يزنوا المال بل مهما حوا وبذلوا
كذا السياسة فالأجناد لو علموا
بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور، وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً:

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمّة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لاتزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتا منها:

فإذ أتيت دد شمل عقدا كما
لاتأمن من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعدل، ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمّة العاضد فحدثها واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه، بعزل شاور، فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب، وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، وجمع العربان، وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند أطفيح، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه، وحمل إلى شاور، وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة، وتم أمره، ولما حصل رزيك عند شاورا أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه، هذا جزاء من لا يرعى الجميل، وكان للصالح إليه إحسان، وتفريق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال، وصار إلى حماه، فأقام بها واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار، فوفوا له

وردّوها عليه، ثم أراد تقّي الدين أخذها منه، فقال : من العجب أن الفرنجي يفي لي برّدّها، وتأخذها أنت مني، فكف عنه.

قال: وتمكن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طي والكامل وسليمان فتبسطوا على الناس وتعاضموا فمجتهم الأنفس، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذوا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطي بن شاور، فدخل على أبيه، وقال له: أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رزيك، واستحلفا له جماعة من الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيك، فقال له شاور: إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هذا المحل، فتركه ولده طي ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلها، وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلاً، كان قد فعله معه، واستقر أمر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاوراً، وكان صار إلى الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء، وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه، ولما وصل إلى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقيه،

وأنزله في جوسق الميدان الأخضر وأحسن ضيافته وإكرامه، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعدارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأربابه وأوده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك يفصح عن حاجته، فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر احسان نور الدين، وسكت عما وراء ذلك، فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً، فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت أيضاً وأطال ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقى في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر، وأما ضرغام فإنه حين استقر به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس، يظهر فيه الطاعة، ويعرض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهمز علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل، وسار إلى مصر

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون

نقيبته لأنه لم يرسله في أمر إلا نجح، ولم يولجه في مضيق إلا انفتح، ولما حضر أسد الدين إلى دمشق، خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء في أمر مصر، وأمره بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه، وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبه في ملكها وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها، ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكر سأل عن المقدم عليه، فقيل له أسد الدين شيركوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظن أن التقدمة تكون له، فلما زوحم بهذا القود سقط في يده وفت في عضده، ولم يجد بداً من المسير فخرج واجتمع بأسد الدين، وسارا جميعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية، ونزلوا على تل في الحوف قريب من بليس يعرف بتل بسطة وضربوا خيامهم هناك، ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخليفة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهو على يومين من القاهرة، فإنهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولما كان قلة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من إيلة مسيرة ثلاثة أيام، فلم يروا ذلك، واختاروا أن يلقوهم على بليس، فأمر ضرغام الأمراء بالخروج فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدّة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدّوا منافذ الطرقات قال لشاور: ما هذا لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشزيمة، فقال له شاور: لا يهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل، وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس، وكلبت الحرب، وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب، ففعل ونهاهم شاور عن القتال،

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزماً، وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا، وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقتلوا أياماً، وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وكان ضرغام صار إلى تحت القصر، وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زويلة، والعامه تلعنه وتصيح عليه فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك منك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه واحتر رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله، فشفع فيه شاور، ودخل شاور القاهرة وقتل ملهها أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعته، فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقبياً عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الثاني لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً بما تقول أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى

الشام، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا انفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين : أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضاً، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بليس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بليس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الفرنج مري يستنجده ويقول له إن شريكه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاستباريته، فخرج مريّ من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بليس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بليس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين يباكر الحرب ويراوحتها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر، وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب إلى جهة حارم، ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه على حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إليه الفرنج الأخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتهاسك الناس، وساروا على وجوههم وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره

على أرتاح، وكان أخوه نصره الدين مع الفرنج ، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتهاسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قرب منه نزل وقبل الأرض بين يديه، فلم يلتفت إليه، فتم على وجهه، واصطف الناس للحرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيل قد اطبقت عليهم فنزلوا عن الخيول وألقوا اسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها، وأراد النزول على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس فافتتحها، وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبليس وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلبليس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويدخل الوهن عليهم، ففعل ذلك ، فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم، وسألوا شاور الإذن في الانفصال، فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التمهل أياماً، وجمع أمراء للمشورة، فاشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل له اتمام الصلح الأمير شمس الخلافة، فأنفذه إليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين وهو محصور ببلبليس يقول له: أعلم أنني أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أي ما اختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفرنج عليهم، والثاني أي خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبليس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأننا فتحناها بسيوفنا، وما من يوم كان يمضي إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بلبس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك تأوّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفت أي ما ألحق أسد الدين، ولا عسكره في البر، وأنا أريد أن الحقه في البحر، وصار في يوم واحد إلى عسقلان وخرج منها إلى الكرك والشوبك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقبا خروج أسد الدين من البرية ليوقع به ، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقاً من خلف المكان الذي كان فيه أرناط، شق إلى الغور وخرج من البلقاء، وسلمه الله تعالى منه، ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوّقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد، واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردي وأقطع شطنوف، وقتل شاور جماعة من أهل مصر، وشرّد آخرين.

ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً للديار المصرية، وكتّم أخباره فما راع شاوراً إلا وروود كتاب مري ملك الفرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر، فطلب شاور منه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً في البر فسبقه الفرنج، ونزلوا على ظاهر بلبس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبس،

فنكب عن طريقهم، وأم الجبل، وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبتها وعدى إلى البر الغربي، ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم، وأحضر شاور أيضا مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفرين والطلحيين والقرشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور بقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ولا أتمكن أحداً من التعرض إليها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أوصل منك إلا نصر الاسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلصه عسر، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد نائرتة، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً، فلما صار الرسول إلى شاور وأدى الرسالة أمر به فقتل، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج، ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج، ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم،

فقاموا معه، وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنة.

حدّثني الشريف الإدريسي نزيل حلب قال: كنت بالاسكندرية يوماً، فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين وقال لي: قل له: إني أخبرك أن السلاح واصل إليك، وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتها بيومين وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

قال: وبقينا على الجيزة يومين فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيرا حثيثاً حتى قارب دلجة، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت، ونزل الناس لتعشية الدواب، فلم تستتم عليقتها، حتى أمر أسد الدين بالرحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا فإذا الجاوش ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهمزوا، وكان أسد الدين قد فرّق أصحابه فريقين: فريقاً معه، وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور فدخل الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا أنه لا منجى لهم إلا الصبر فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فوالت عساكر الأفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مري ملك الأفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم إلى الاسكندرية، فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متولياً ديوانها فحمل إلى أسد الدين

الأموال وقنّواه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصار فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية، وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد، ونزل الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشدّ القتال، وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم، وقتل منهم جماعة عظيمة ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان، واتصل به اشتداد الأمر على الاسكندرية ، فرحل من قوص إلى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطر إلى الصلح، وضجرت الفرنج أيضا، فتوسط ملك الفرنج في ذلك فتقرر أمر الصلح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفارة، ثم يعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدّة مراكب.

قال الادريسي: كنت في جملة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى مينا عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مرّي، فأطلقنا فخرجنا إلى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بأن لا يتعرض لهم بسوء، واجتمع بعمه أسد الدين، ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع أهل الاسكندرية، واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاوراً نقض الأيمان، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا فقال: ليس له ذلك وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الإيمان جرت على أن لا يتعرض لأحد من أهل مصر ولا الاسكندرية، وألزمه يمينا أخرى في أن لا يتعرض لأحد ممن لجأ إلى

أسد الدين أو صلاح الدين، ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرحيل إلى الشام، واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى إيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل، وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مري وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم، فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه فلم يجد بداً من اليمين، فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوي منها لأنه شاهدها، وشاهد مغلاتها، فوجدتها أمراً عظيماً، فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني غير واحد أن شاوراً كاتب نور الدين في ذلك وضمن له أن يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة، ولما بلغ شاور أن نور الدين صرف همه أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولاً بهدية سنوية وأصبحه كتاباً حسناً أوله: «ورد كتاب استدعى شكري وحمدي واستخلص من الصفاء ما عندي واستفرغ في الشاء على مرسله جهدي، فكأنما استملت معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي، وسررت للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهر على الدين كله، بأن يكون مثله ملكاً من ملوكه يرجع إليه في عقده وحله، وتشير الأصابع، وتعقد الخناصر على علو محله، والله يزيده بمكانه تشبهاً وقوة، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة، فما أسعد رأساً دل على نصره الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة، ووفر

على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة، وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني وباق منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كثيراً أصل إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلًا ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتملى، ولعمري لقد علا بناؤها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكراً، وجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويجوطها فلا تطرق إلى جوانبها الغير، ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحه يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاستبارية وتشاوروا فجرت بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده، وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها، ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه يقال له بدران وسيره إلى لقاء مري يسأله عن السبب في قصده، فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه وضمن له رضىخة على أن يورثي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما

سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني ولم ينصحني، وأنا فوائتق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مري، وكان بينهما مؤالفة، فلما دخل على الملك قال له: مرحبا بشمس الخلافة، فقال: مرحبا بالملك الغدار، وإلا مالذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا: هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك: الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرّجنا لتتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة فأى شيء قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور أبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم، كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء، في كل عام، فأجابه شاور إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو إذا قدم علي عدوّ، فأمامع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر، فأجابه مري أن لا بد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد، فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدّة، ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايروي على قول حتى خيم على بلبيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخياط يحيى، وابن قرجلة، وأرسل إلى طي بن شاور، وكان بلبيس وقال له: أين ننزل؟ قال: على

أسنة الرماح، وقال له: أتحسب أن بليس جنة تأكلها، فأرسل إليه مري نعم هي جنة، والقاهرة زبدة، ثم قاتل بليس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخرب أكثرها، وأحرق جل أدورها ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد وحمل في وسطهم برمح، ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقة قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك، ووقف إلى أن عدى أكثرهم النيل إلى جهة مينة حمل، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقسموهم، وبقي أهل بليس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مغل بليس على كثرتة على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بليس بخراجهم إلى آخر أيامه، ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بليس من القتل والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً أشفق من ذلك وطلب الأذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نصرته ومعونته، فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طي تلك الكتب كتباً وسخماً أعاليها بالمداد.

قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأى أبي شمس الخلافة لأنه لما رجع من عند مري لعنه الله بعد أخذ بليس لإجتمع بالكامل بن شاور، وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له، قال له: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين

فليس لهذا الأمر غيره، فقصده الكامل، وكتب الكتاب، فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصله، ورسالة سرّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور باحراق مصر، وانذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت، وأحرقت مصر من تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله نزلوا في بركة الحبش، وانبتت خيولهم في الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به، فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مري لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر، وقال له: أترى دخاناً في السماء، قال: نعم قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نפט وقرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكوني كلما قلت لك أنزل في مكان تقدّمت إلى غيره ما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة، فقال: هو كما تقول ولا بدّ من نزولي القاهرة، ومعني فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها، ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته، فقاتلوا البلد أياماً، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ شمس الخلافة إلى مري لعنه الله تعالى برسالة طويلة فتل بها في غاربه ودار من حواليه، وفي ضمنها أن هذا بلد عظيم، وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البتة، ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة،

والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً، فاستقرت المصانعة على أربع مائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار يعجل له منها مائة ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك، وانعدت الهدنة، وحلف مري ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار، في عدة دفعات سوف فيها الأوقات، ثم أخذ يطله بالباقي انتظاراً لقدم العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم فلما رأوهم رحلوا إلى بلييس، ونزل أسد الدين بالمقسم، ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس، وأتبعه أسد الدين ونزل على بلييس، وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صدر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال، فصار إليه واجتمع به وقال: قد قلّ علينا المال، فقال ملك الفرنج اطلب ماشئت قال: اشتهى أن تهب لي النصف؟ قال: قد فعلت، فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا، فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عاقل، وإن شاوراً ملك وإنكما ماسألتهما أن أهبكما هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث، فقال له: صدقت هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصره لنا، وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار، فقال ملك الفرنج: أنا راض بذلك، وإن بقي علي شيء حملته إليكم، وعول على الرحيل، فقال له: بعد أن تطلق طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلييس بعد انصرافك شيئاً، فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق

وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم؟ فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البرّ الغربي، وليس لهم وزر، وأما الآن فلا لأتهم على البرّ المتصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البرّ في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه، ثم إنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه فقبل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية، وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة، وأحسن إليهم وأما شاور فإنه أخذ في التودد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته في ملكه، ووصفا له قلبه، حتى أنفذ إليه سراً أحرس نفسك من عساكر الشام.

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر، وكثرة خيرها، وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سكنها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها، ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها، فأخذ في أعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدّم إليه بقتله فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور،

وقال لهم: قد علمتم رغبتني في هذه البلاد، ومحبتني لها وحرصني عليها لاسيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالك رقعتها، وتيقن أي متى خرجت منها عادوا إليها واحتوا عليها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت ما لهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويغرنا ويغرهم، ويضرب بيننا وبينهم، وقد ضيع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوى بها الفرنج علينا، وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبهم، إلى هذه البلاد التي قد قل رجالها، وهلكت أبطالها، فتجلت الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرقوا على ايقاع القبض به، وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصدونه، ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاوراً دخل إليه إلى داره، وناوله سيفه وعمامته، فتأزله أسد الدين بالقبض عليه، وأخذ منصبه، ثم إن شاور ركب يوماً في أهته وجلالته فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين، فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مديده إلى تلايبه، وصاح عليه فرجله، ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه إلى القصر، وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر.

وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة، وأنفذ إليه طبق فضة

فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد أخوته، ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين، أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عدّة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عدّة أشعار، غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد واستبدّ بالأمر في ذلك الصقع أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسامته وفتلات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي وأفضى بسرّه إلى مجد الدين بن الداية.

حدّثني جماعة عن شمس الدين علي بن الداية أخيه مجد الدين وحدّثني الموفق، محمود بن النحاس الفقيه الحلبي، وقد جرى ذكر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، لقد كان ودّه أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاًح الدين إلى ما صاراً إليه، ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه، ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاًح الدين فما تمهاً له لاسيما يوم بلغه حصول صلاًح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى قضى عليه الهمة، ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضله محسوباً لما صبر على ما جرى ولا أغضى الملك العادل على القذى، ولقد كاتب العاضد عدّة دفعات في أمر الأسد والصلاًح فلم يحصل له فيها النجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بانفاد أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال، فمن بعض مكاتباته: « ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقييته، واشتدّ حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين

الضلال بشهابه الثاقب، ويصمي مقل الشرك بسهمه النافذ الصائب».

قلت : لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاقد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صح ما نقله ابن أبي طيِّ والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه ، وفنيت أعوامه، وكان قرماً يجب أكل اللحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق، كان فيها تلافه، ويقال إنه أكل في ذلك اليوم مضيرة، ودخل الحمام فلما خرج منها أصابه الخناق، قال: وكان شجاعاً بارعاً قوياً جلدأ في ذاته شديداً على الكفار، وطأته عظيمة، في ذات الله صولته عفيفاً ديناً كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار حذباً على أهله وأقاربه، وكان فيه امسك، وخلف مالا كثيراً، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الأسدية، وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء، بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المطة على الميدان الأخضر، وهي موقفة على الطائفتين الحنفية والشافعية والخانقاة الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طيِّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين، وفي تلك الساعة

أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره وخطبه في تولى الوزارة، فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر، وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته، وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد، بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنسي بطرز ذهب، وثوب ديبقي بطرازي ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان ديبقي بطرازي دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق نخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشددة بيضاء، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهر، وفي رأسها مشددة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدّة بقج، وعدّة من الخيل، وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وقرىء المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوماً عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلوات، ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشرعية والسياسة، ونظم بحسن تديره من الدولة

بدها، وجرى في مناهج العدل على جدها، وحيعل إلى جوده وفضله،
ونادى إلى رفته وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر
قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان،
واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل وروى بسبح كرمه من بعد منه
وقرب من أهل الفضل، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ
للتدبير، وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع
المبين، وشمر عن ساق الجد والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه
وجود جوده شأبيب فضله النائب عن العهد، وورد عليه القصاد والزوار،
وأمر بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدّثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر،
وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر
راكباً، فإذا حصل عند أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد
وحكمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء
الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم
فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثني جماعة من أصحاب نور الدين أن
نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد
انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه
وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري،
وكتب في ذلك عدّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم
يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين
من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه
حساب مصر، وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجليلة الأدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ومن أنصف عذره ومن عرف صبره، والذي انكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده، بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيِّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل مشاعرهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيِّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيِّ في كتابه مفرقا في مواضع، لهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر إنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشرة، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر، ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طيِّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، حدّثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها علي، فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في

مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يصبر على مثلها لعلني اتضرر أو
أغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: قد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من
صلاح الدين رحمه الله، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي، كتب نور الدين
ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو
بحلب ليوليه قضاء مصر صورته: «حسبي الله وكفى، وفق الله الشيخ
الإمام شرف الدين لطاعته، وختم له بخير، غير خاف على الشيخ ما أنا
عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى
الله، والله وليّ التوفيق، والمطلع على نيتي، وأنت تعلم نيتي كما قال عز
من قائل: (ومن عنده علم الكتاب) (١٠٩) أنت تعلم أن مصر اليوم
قد لزمتنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار
إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد إلا إن المقدم على
كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر
واقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع إلا
للسدائد، وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والآن فقد تعين
عليك وعلّي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت،
ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب
عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل
ما تعلم أنه يقربك إلى الله، وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله، فإذا
كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله فيطيب قلبي، وتبرأ ذمتي،
وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك
عندي، حتى أسيركم إلى مصر والسلام، بموافقة صاحبي واتفاق منه
صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً
وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاختيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام،
الله تعالى يكثر من الاختيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدّة سنين متقدّمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن العاملين، وأنبى إليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوّض عنه بعدّة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك بأشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه .

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق منها:

بملك مصر أهني مالك الأهم
فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعد لك شمل الملك ملتماً
وهل بعد لك شيء غير ملتئم
يافع الخير عن طبع بلا كلف
ومولى العرف عن خلق بلا سام
ورامقائلهم ثغر الكفر تعجمه
لالثم ثغر شيت واضح شبم

لله درك نور الدين من ملك
بالعزم مفتوح بالنصر مختتم
أثار عزمك في الإسلام واضحة
وسره لك بآداب غير مكتوم
بما من العدل والاحسان تنشره
تحاف ربك خوف المذنب الأثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة
ثنى الأعداء أقداماً على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابها
وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدو بها
تمكن النار بالاحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب
واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعبور الطرق في طلب
العلياء مقتحات أصعب الفحم
وعاجلات من الأفرنج غلهم
والقييد في موضع الأطواق والخدم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت
من العدو بحد الصارم الخدم
أعانا الله في إطفاء جمر أذى
من شر شاوور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها
لأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة أنمحقت
وعاودت دولة الاحسان والكرم
ملوكها لك صاروا أعبداً وغداً
بها عبيدك أملاكاً ذوي حرم

أنبت عنك بها قمر ما ينوب بها
في البأس عن عنتر في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك
عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها
بكشف دولتها لهما على وضهم
فالنيل ملتطم جار على خجل
جار البحر نوال منك ملتطم
أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
واحطم جمعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب
على البغاث وثوب الاجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
في عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازي يسوسهما
بالفضل والعدل والافضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبداً
محمود الملك محمود بكل فم
فاشك مصر واظهر عز سنتها
كم تعتفي وإلى كم تشتكي وكم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله
مانال شاؤك في المعالي سنجر
كلا ولا كسرى ولا اسكنندر
ياخير من ركب الجياد وخاض في
لجج المنايا والاسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من
اتباعه من جده المستنصر

والمستضى بالله معتد به
ويجده وبحده مستظه
أوسد بالشام الثغور محاميا
للدين حتى عاد عنها قيصر
بيكي فيروي الأرض بحد موعه
والجو من أنفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرها
والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كها
فتعاعدوا عن قصدها وتأخروا
ماضه طي المنية ذاته
وصفاتاه بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزينة
لوقائع مشهورة لاتنكر
وإذا عددنا الأنام مناقبا
فعليك قبل الكل يثنى الخنصر
في الرأي قيس في الساحة حاتم
في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها
وسواك في أماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من
أسد الثرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان
وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:
يا صلاح الدين الذي أصلح الفاسد
سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا
من نوال أم سال نيل ثاني

وعلى نيلها الكفيك فضيل
فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطيًا وك الغر غزرا
فتلقت أم الناب التهان
خلع راقى العيون وراعت
وعلا وصفها عن الامكان
مذهبات كأنها خلج الرض
وان قد أهديت لاهل الجنان
مشرقات بطر زها الذهبيا
ت الحسان الرفيعة الأثمان
فالعمامات كالغمامات والطر
زب روق كثيرة اللمعان
والموالي بها من التيه والفخ
ر على الدهر ساحبو الأردن
كيف خص العماد بالأدون المخ
لق من عصابة الديوان
أخلىق من نسجه لك في المد
ح جديد بأمه من الخلقان
وكذا عادة الليالي تخص ال
فاضل المستحق بالحرمان
لم تنزل سائرات جودك بالش
ام لديه غزيرة التهان
فإذا لم تزد مصر كما لا
في المنسى فاحمه من النقصان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبدك شمس الدولة المرتجا
منتظر تشريفك المذهبيا

فاعتبت صلاح الدين لي حالتي
عساه بالاصلاح أن يعتبها
غرقه ماتم فإني أرى
من فضله للفضل أن يغضبها
وكيف يرضى ذلك بعض الرضى
ومجده يابأباه كل الابا
وقل له جاءته ملبوسة
تخلفت من تبع في سبها
عامة رقت ورثت فما
نشرتها إلا وطارت هبها

قال : فوصل من صلاح الدين عمارة مذهبة وكتب يعتذر عن العمارة
التي قبلها ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول فيه: استعير
لسانه في الاعتذار إلى العماد فإني استقل لمرامه إرم ذات العماد، فكتب
العماد:

أما العماد فقد تضاعف شكره
نعماك شكر الروض نعمى الصيب
لعمامة ذهبية كغمامة
يسد وجهها برق الطراز المغربي
ما كان أحسن حاله لو أنه
شفعت عمامتته بثوب مذهب

قال وكتب إليه:

أهني الملك النبا
صربا الملك وبالنصر
ومما هدم من بنيها
ندين الحق في مصر

وما أسداه من بر
بلاعده ولا حصر
وما أحياه من عدل
وما أخفف من إصر
وأعلاء سنن السنن
ة في بحبوحة القصر
قد استولى على مصر
بحق يوسف العصر
وأحياسنة الأحسا
ن في البسند وفي الحضرة

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة أولها يقول:
ديار الهوى حيا مع الملك القطر
وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت في عنفوان شبابها
ونضرتا من بعد ما هرمت مصر
وكم خاطب رذته لم يك كفؤها
إلى أن أتاهما خاطب سيفه المهر
حماها حتى الليث العرين وصانها
كما صان عينان من مسلم القذى شفر
وكان بها بحر أجاج فأصبحت
ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى:
فما أنت إلا الشمس لولاك لم تنزل
على مصر ظلما الضلالة سرمد
وكان بها طغيان فرعون لم يزل
كما كان لما أن طغى وتمردا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى
وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى
قل للملوك تزحزحوا عن ذروة الـ
علياء للملك الهمام الناصر
يعطي الألف ويلتقيها باسمها
طلق المحيا في القنا المتشاجر

وقرأت في ديوان العرقلة : وقال في المولى الملك الناصر، وقد أنفذ له
من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:
صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبيت إلا حريصا
أتى منك السلام لنا عموما
وجودك جاءني وحدي خصوصا
فكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصا (١٢٠)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ،
فلما صار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره
بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:
إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجوز
ترى أبصر الألف التي كنت واعدني
بها في يدي قبل المات تصير
وهيهات والأفرنج بيني وبينكم
سيجاج قتييل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشأم فقير (١١١)

وقال أيضا:

قل للصالح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم
وماتفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عن ~~م~~ مديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغى أبو الطاري
حمر أكاسيا فكم غبرا كخي لكم
عتقائنا لا كاعدائي وأطماري (١١٢)

يعني بالطاغى شاوراً وله ابن اسمه الطاري، وأنفذ له من مصر
عشرين دينار فقال:
يا مالكا ما برحت كفه
تجود بـ المال على كـ في
أفلح بالعشرين من لم يزل في
رأس عشرين من من الكهف
يا ألف مولاي ولكنها
محسوبة من جملة الألف (١١٣)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر،
فأعطاه ذلك وأخذ له من أخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور،
وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، فمات بدمشق في سنة ست
أوسبع وستين وخمسة .

قلت: وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيه: وقال وكتبها على
حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسة:
يـ ادا خل الحمام هـ نيتها
دائرة كـ الفلك الدائر
تأمل الجنة قد زخرفت
وعمرت للملك الناصر

- ٧٩٩١ -

كأنفايض أناييهَا
نِدهاء للوارد والصادر